# المسألة الثقافية فى الجزائر
# إبان العهد الاستعمارى

(مساهمة فى مناقشة كتاب «تجديد الفكر القومى» للدكتور مصطفى الفقى)

محمد الميلى إبراهيمى *

عزيزي د. مصطفى الفقى

سلاما وتحية وبعد ،

فقد بادرت الى القاء نظرة على كتابك « تجديد الفكر القومى » لأنه يهمنى أن أعرف أفكارك المكتوبة فى هذا المجال ، من خلال قراءة متأنية ، علما بأننى عرفت بعد – كما تعرف ذلك ولاشك – أهم أفكارك من خلال ما أتيح لى سماعه منك فى لقاءات خاصة أو أثناء القائكم بعض المحاضرات التى استمتعت بالاستماع اليها ، مثلما استمتعت بالاستماع الى عدد من شخصيات مصر وأعلامها ، مثل محمد حسنين هيكل ود.أسامة الباز ، وحسين أحمد أمين ولطفى الخولى ، وعلى الدين هلال ورجاء النقاش وحسين عبد الرازق ومحمد فائق ، وفريدة النقاش ، وجلال أحمد أمين وجميل مطر وسعد الدين إبراهيم ومحمد سيد أحمد ، وإبراهيم سعد الدين الى آخر من استمعت اليهم (وهم يشكلون قائمة طويلة يصعب ذكرها كلها ) ، أثناء اقامتى بالقاهرة خلال سنتى ١٩٩١ – ١٩٩٢ ، التى بدت لى جد قصيرة ، بفعل جاذبية مدينة المعز ، وثروتها الفكرية وتنوع انشطتها الثقافية ، والحماس الذى يطبع الجدل بين مختلف شرائحها المثقفة ، وبفعل الدفء الذى يغمرك به أناسها ، من أسفل السلم الاجتماعى الى أعلاه ، زيادة عن ضخامة الأعباء التى كانت موكولة الىّ فى ظرف لم تكن فيه المهام الديبلوماسية بين الجزائر والقاهرة سهلة ، ويجب أن أسجل هنا اعترافى بأن عديد الصداقات التى

* المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – ١٩٩٣ .
( *مجلة البحوث والدراسات العربية* ، مج ٢٢ ، يوليو / تموز ١٩٩٤ – ص ص ٣٢٥ – ٣٤٥ ) .

اكتسبتها على مدى ثلاثين سنة مضت ، ساعدتني على تذليل الصعاب ، وفتحت لى عديدا من الأبواب ، مما زاد فى تطبيب اقامتى بالقاهرة ، ومضاعفة حسرتى على مفارقتها ، ولن اذيع سرا إذا قلت بأن الحسرة الوحيدة التى شعرت بها عند بداية تسلمى مهامى بالقاهرة فى ١٩٩١ هى تلك التى أحسست بها عند زيارة الصديق أحمد بهاء الدين الذى توقف قلمه فى وقت كنا فيه أشد حاجة إليه .

وقد سررت لما قرأت ، لأننى وجدت أننى اشاطرك معظم آرائك . ورغم أننى كنت أتوقع أن تكتب ما قرأته لك ، أى رغم انعدام عنصر المفاجأة فيما قرأت من كتابك ، فإن المرء يزداد اطمئنانا عندما يقرأ مكتوبا ما كان يتوقعه من أحد المنظرين الشباب ، مثلك ، لأن ذلك يحصل لنا نحن الجيل الاقدم ، بعضا من أمل نتمسك بخيوطه فى هذا الزمان ، الذى أفضل أن أترك وصفه لغيرى ، فأن يصر مفكر مثلك على التفاؤل وعدم اليأس ، يعتبر فى نظر امثالى من المنتمين إلى الجيل السابق على جيلك ، عاملا هاما فى تقليص عوامل الإحباط وتهميش رقعة القنوط .

لكننى لم أكن لأكتب لك ربما من أجل أن أقول لك هذا فقط ، فقد استوقفتنى الفقرة الثانية من الصفحة العاشرة ، ابتداء من السطر السابع إلى السطر التاسع عشر . وقد وجدت أن الحكم الذى أصدرته فى هذه الفقرة ، أى بعبارة أدق الفكرة التى استخلصتها من ملاحظاتك وتتبعك للتجربة الجزائرية – وجدت أنها تحتاج إلى تعليق وتوضيح يسمح بتجنب الاخطاء التى تترتب على تعميمها والتسليم بها ، لأنها تستند الى مقولة جد شائعة لدى عدد من الفرنسيين أولا ، وثانيا لدى عدد من المثقفين العرب الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عما وراء بعض القوالب التى تشكلت فى رحاب «الجزائر الفرنسية» ، دون أن يجهدوا أنفسهم لاكتشاف كل المعطيات الكامنة وراء تلك المقولة (كدت أكتب لاكتشاف الحقيقة الخ ، ثم عدلت عن ذلك لتعبير أكثر موضوعية ، لأن «الحقيقة» تظل نسبية فى معظم الحالات ) .

فانت تقول بالحرف الواحد : « .. وأوضح نموذج لذلك ، ذلك الأساس الروحى والقومى ، الذى استند اليه المجاهدون الجزائريون ، فى سنوات النضال الدامية ضد الاحتلال الفرنسى .. فلقد كان الإسلام بالنسبة لهم دينا وقومية فى وقت واحد إذ لم

يكن للعروبة وجود راسخ ، كما أن حركة التعريب لم تكن قد بدأت بشكل مؤثر وبذلك لم يكن أمام المناضل الجزائري من سند يواجه به عدوه إلا دينه الذي يختلف به عنه ، فقد كان الجزائريون والفرنسيون ، في ذلك الوقت ، يتحدثون لغة واحدة وينتمون الي ثقافة مشتركة ، ولم يكن هناك معيار للاختلاف وتصنيف الهوية وتحديد الذات إلا بالمنطلق الديني والأساس الروحي » .

ان هذه الفقرة ، وخاصة السطور التى وضعتُ تحتها خطا ، استوقفتنى لما تكشف عنه من ظلال لم تبرز معها أهم المعطيات المتصلة بالأوضاع الثقافية والاجتماعية لجزائر العهد الاستعماري .

صحيح أنك احتطت بعض الشئ لما قد يقال ردا عليك ، عندما قلت : « ..... إذ لم يكن للعروبة وجود راسخ كما أن حركة التعريب لم تكن قد بدأت بشكل مؤثر... الخ » .

لكن قولك : « كان الجزائريون والفرنسيون فى ذلك الوقت يتحدثون لغة واحدة وينتمون الى ثقافة مشتركة » يتطلب تعقيبا ، أرجو ألا يكون طويلا حتى لا يكون مملا ولا يثقل عليك ، على أنه يتعين علىَّ أن أسجل لك توفيقك فى التاكيد على أنه لم يكن هناك معايير « للاختلاف وتصنيف الهوية وتحديد الذات إلا بالمنطلق الدينى ، والأساس الروحى » .

فالأمين العام للحزب الشيوعى الفرنسى ، الذى كان الوطنيون الجزائريون يأخذون عليه عدم الإيمان بوجود « وطن جزائرى » أو « أمة جزائرية » ( كما هو التعبير الذى كان شائعا ، قبل أن تصبح «الأمة» مصطلحا ينسحب على مفهوم قومى يختلف عن ذلك الذى كان قائما فى الثلاثينات ) - موريس طوريز هذا ، لا يتردد فى أن يؤكد خلال النقاش الذى دار فى المكتب السياسى للحزب الشيوعى عن الوضع الجزائرى ، بتاريخ ٤ مايو ١٩٣٢ :

« من بين المشاكل الأكثر أهمية التى تعرفها البلدان المتخلفة ، هو أن أحد أشكال المقاومة ضد القمع يتخذ طابعا دينيا ، ويتفنن الاستعمار فى مواجهته ، باستعمال هذه الحركة التى هى دينية فى ظاهرها ، لتحريفها وتطويعها لخدمة الامبريالية ، إننا لا نستطيع أن نبقى غير آبهين إزاء هذه الحركة الدينية ، بل يجب أن تهمنا ، إن لدىً

احساسا بأن سلسلة التظاهرات الدينية فى الجزائر تعبر عن حركة تمرد ضد الامبريالية الفرنسية ، إن الأمر لا يتعلق بدعم مطالب ذات طابع رجعي متخلف ، لكن إذا نحن لم نفهم جيدا اشكال المقاومة لهذه الحركة الدينية ، فسوف يفوتنا فهم حركة الكفاح الذى يخوضه شعب الجزائر من أجل تحرره » .

وفيما يلى بعض ملاحظات اكتبها لك على عجل ، فهى إذا كانت لا ترقى الى مستوى البحث والدراسة ، فأرجو ألا تخلو - رغم ذلك - من فائدة : إذا اعتبرنا أن الفترة التى اختمر فيها الفكر الوطنى والقومى بالجزائر تبدأ مع الحرب العالمية الأولى ، يمكن أن تقدم الملاحظات التالية :

لقد راهن الاستعمار على تعميم الفرنسية ومضايقة اللغة العربية فى تحقيق مشروعه لفرنسة الإنسان بعد «فرنسة» الأرض ذلك أن أخصب الأراضى كانت قد اقتطعت من الجزائريين لتصبح ملكا لفرنسيين ، وهو أمر طبيعى فى مشروع استيطانى كان يهدف إلى اجلاء الجزائريين عن الأراضى الخصبة وحصرهم فى المناطق الجدباء.

وقد كانت الدعائم الأساسية التي يقوم عليها مشروع فرنسة الانسان تتمثل خاصة في :

١ - تشويه التاريخ وتحقيره :

أ - فالعهود التى ركزت عليها الأبحاث والدراسات الفرنسية هى عصور ما قبل التاريخ ، والعهد الرومانى ، والعهد الفرنسى ، أما العهد الاسلامى فقد كان يعتبر عهدا « مظلما » فقد اطلق أحد المؤرخين الذين تخصصوا فى تاريخ المغرب العربى ، على دراسة له تتصل بالعهد الاسلامى عنوان «القرون المظلمة للمغرب العربى» . ولست أدرى إذا كان هذا المؤرخ أو غيره هو الذى قال فى هذا الصدد ما معناه بأن هذا الجزء من أفريقيا - وهو يعنى بذلك الجزائر ومجموع المغرب العربى ربما - قد تم اقتطاعه وفصله عن أوروبا بصورة تعسفية . والمؤكد أن هناك من أولئك المؤرخين من أكد ، ردا على ما يمكن أن يقال بأن الجزائر الحديثة قد تحددت فى ظل الحكم

العثمانى ، قائلا بأنه على فرض التسليم بذلك فلا يجوز أن ننسى أن تركيا نصف أوربية . أى أنه إذا كانت هناك ايجابيات تحسب لتركيا ، فليس لأنها إسلامية ، ولكن لإنها تنتمى مناصفة لأوربا .

ب - فى هذا الاطار ، الح ستيفان غزيل ( الذى تخصص فى التاريخ القديم لشمال افريقيا وألف فى ذلك مرجعا أساسيا ضخما ) على ضرورة الاعتناء بتاريخ الجزائر وكتابته من منظور فرنسى ، وقد ألقى كلمة بمناسبة تدشين كلية الآداب بجامعة الجزائر فى بدايات القرن ، ذكر فيها أن إحدى مهام الدراسة التاريخية فى الجزائر هى تكريس الوجود الفرنسى والسيادة الفرنسية الى الأبد ، وقال فى هذا المجال عبارة أظن أن ترجمتها هى « فالتاريخ بهذا المفهوم ليس هو أقل العلوم جدوى » .

جـ - وأذكر عندما كنا تلاميذ فى المدرسة الابتدائية الفرنسية ، أن أحد المعلمين كان قد وزع علينا كتيبا صغيرا يسرد وقائع الاحتلال الفرنسى للجزائر فى ١٨٣٠ ، ويشتمل هذا الكتيب على رسم يصور مجموعة من أعيان العاصمة الجزائرية وقد شكلوا حلقة حول قصعة «زلابية» ، وكان المعلم يريد أن يغرس فى أذهاننا أن أعيان العاصمة قد قبلوا بتسليم الجزائر مقابل «قصعة زلابية» أهداها لهم الفرنسيون .

٢ - تضييق الخناق على العربية :

أ - بدأت هذه العملية مع السنوات الأولى للاحتلال ، ويكفى أن نقارن بين عدد المدارس والمعاهد التى كانت موجودة فى ١٨٣٠ ، وبين عددها بعد ذلك ببضع سنوات حيث انخفض عددها بنسبة كبيرة ( لا أذكرها ) . وتوجد عدة شهادات فرنسية تبرز ما تم تنفيذه بشأن تقليص الفضاء اللغوى العربى وتشديد الخناق على العربية ، وتجفيف منابع الثقافة العربية - الإسلامية كما سجل ذلك طوكفيل نفسه .

ب - تواصلت العملية بعد ذلك عن طريق إجبار الجزائريين على تعلم اللغة الفرنسية، ذلك أن السكان كانوا يرفضون التردد على المدارس الفرنسية ، وقد كان شيوخ الجيل الذى سبقنا يروون عدة حكايات عن الوسائل المختلفة التى تستعملها الادارة الفرنسية لحمل الأطفال الجزائريين على الذهاب إلى المدرسة .

وحتى عندما أصبحت المدرسة الفرنسية تحتل حيزا معتبرا من الفضاء التعليمى ، فقد كانت هناك مقاومة لما يلقن فيها للتلاميذ ، إتخذت أشكالا مختلفة .

فقد كانت الأمهات والجدات يرددن على مسامع الأبناء والأحفاد قصص المقاومة المسلحة التى قادها أمثال الأمير عبد القادر وأحمد باى ...... الخ فى صورة تكاد تنعدم فيها الحدود بين التاريخ والاسطورة . وكان هناك من الآباء من يحرم على ابنه حفظ النصوص المدرسية التى تلح على ربط الجزائر وتبعيتها لفرنسا وتتعمد إغفال تاريخها أو خصوصيتها .

ويروى أحدهم – بعد أن صار كبيرا وأتقن الفرنسية – أن أباه منعه من سرد درس يتبع الجزائرى الى أسلاف الفرنسيين المنسوبين الى بلاد «الغال» (La Gaulle) . ولما قال له ابنه : ان المعلم متعود على حفظى لكل دروسى ، قال له : إن طلب منك سرد هذا الدرس فازعم أنك لم تحفظه .

وصادف أن طلب المعلم فى الغد سرد الدرس المذكور من نفس التلميذ فلم يستطع أن يكذب بأنه لم يحفظه ولم يستطع أن يخالف أمر أبيه : فأجهش بالبكاء .

ج – بعد أن أغلقت معاهد تكوين معلمى العربية ، لم يعد يوجد هناك من يمكن الاعتماد عليه فى تعليم القرآن والعربية فى بعض المناطق . فصدر أمر الادارة الفرنسية بمنع «الاجانب» من التعليم ، ويقصد بالاجانب ، الذين ليسوا من أبناء المنطقة .

٣ – تحنيط الدين وتسخير بعض رجاله :

أ – كانت الزوايا بوصفها الساهرة على التعليم الدينى ، أحد معاقل المقاومة ضد الاحتلال لكن غلبة السلاح كانت للفرنسيين ، مما دفع بعض مشايخ الطرق والزوايا الى الرضا بالتعايش مع الاستعمار فى مرحلة أولى .

ب – ومع مرور الوقت وإغراءات الإدارة الفرنسية تحول بعضهم إلى حليف حقيقى للسلطة الفرنسية . وظهرت فكرة اعتبار « الاستعمار قضاء وقدرا » وبما أنه لاراد لقضاء الله ، فلابد من القبول به .

وشيئا فشيئا ظهرت ثقـافة دينية جديدة تقوم على تقديس أولئك الشيوخ الذين كانوا يروجـون بين الناس أفكارا تقول : « اعتقد ولا تنتقد » أى اعتقد فى شـيخ الطـريقة ولا تحاول نقد ما يصدر عنه من تصرفات . أو شعار يقول : « وافق أو نافق أو فارق » أى وافق على وجود الاستعمار . أو تظاهر بأنك توافق ، وإلا فما عليك إلا أن ترحل وتهجر البلاد .

ج – صحيح أن هناك بعض الزوايا ظل أصحابها قريبين من الشعب ، ولم يتحالفوا مع الاستعمار – لكن هذه الزوايا كانت فقيرة فى معظمها ، فلم تكن لها قوة تواجه بها شبكات الأعوان الذين كانوا فى خدمة الزوايا المتحالفة مع السلطات الاستعمارية .

كيف كان رد فعل الجزائريين على هذا المشروع الاستعمارى ذى الأعمدة الثلاثة ؟
إن الإجابة عن هذا السؤال تسمح بتوضيح بعض المعطيات الثقافية ، والاجتماعية التى تكون قد غابت عنك . مما يفسر استخلاصك للفكرة موضوع النقاش .

وإذا سلمنا بأن المشروع الاستعمارى يتمحور حول أعمدة رئيسية ثلاثة ، استطعنا أن نتخيل نوع ردود الفعل التى واجهتها .

ولا داعى الى التأكيد على أن المشروع المذكور لم يوضع مع الاحتلال بصورة منهجية واضحة . ذلك أنه بدأ متعثرا ، عبر توجيهات وتعليمات وممارسات تصدر عن هذه الجهة أو تلك من مختلف الجهات ذات العلاقة بالجزائر .

فقد يصدر توجيه معين عن وزارة التعليم مثلا ، وقد صدرت بالفعل توجيهات معينة عن چول ڤيرى الذى يعتبر أب المدرسـة اللائيكية . وقد يصدر توجيه عن هذا المسئول أو ذاك من المسئولين العسكريين ، والشواهد على ذلك عديدة ، علما بأن بعض التوجيهات والملاحظات التى صدرت عن عسكريين ، كانت تتصل بجوانب معنوية . مثل ما كان كتبه كولونيل فرنسى فى القرن الماضى عندما لاحظ أن الأمير عبد القادر حاول بعد انكساره عسكريا أن ينازع الفرنسيين السيطرة على «الأرواح» عبر الدين واللغة .

وهناك توجيهات صدرت عن رجال دين مسيحيين منذ القرن الماضى أيضا بشأن ضرورة إعادة الهيمنة المسيحية على الشمال الافريقى ، مثلما كان الأمر قبل الفتح الإسلامى . وهناك من ذهب الى أن الجزائريين « مسلمون سطحيون» وأنه لا يجوز تعميق اسلامهم عن طريق تعليمهم اللغة العربية .

وشيئا فشيئا تشكلت فى الميدان ملامح المشروع الاستعمارى منذ القرن الماضى حتى أصبح واضح المعالم ، تسنده قوانين ومراسيم ، وتجسمه ممارسات تعبر كلها عن توجه معين يتطابق مع مطامع ومطامح المعمرين الذين لم يكونوا كلهم من أصل فرنسى وإذا كانت هناك مبادئ وقوانين معمول بها فى فرنسا (مثل فصل الدين عن الدولة) دون الجزائر فإن باريس لم تفعل شيئا من أجل تصحيح «الخلل» ، وتركت الادارة الكولونيالية فى الجزائر تتولى السيطرة على المؤسسات الدينية ، وقد بلغ بها الأمر أن فرضت لمدة طويلة الاحتفال داخل المسجد الرسمى بالعاصمة الجزائرية ، بذكرى جان دارك ، ولم يوضع حد لهذه الممارسة إلا فى ١٩٥٠ .

وقبل أن نشرع فى ذكر ملامح المشروع الوطنى المضاد ، يحسن التذكير ببعض مظاهر المشروع الاستعمارى وخاصة ما يتصل من تطبيقاته بالدين واللغة .

فقد صدرت عدة كتابات ، تجسمت فيما بعد فى ممارسات وتنظيمات تنطلق من التنصيص على توجهات معينة مثل :

– ضرورة تجريد الجزائريين أو بعضهم من الاسلام ، نظرا لأنه هو الذى جعل سكان الجزائر على اختلاف أعراقهم ، يتحدون فى مواجهة الاستعمار ، وبما أن العربية هى لغة الاسلام فيجب محاربتها . وقد تجسم هذا التوجه فى السعى الى :

● تمسيح الجزائريين ، عن طريق « شبكات جمعية الآباء البيض » التى أسسها الكاردينال لافيجرى ، وقد تلقى الكاردينال تشجيعا خاصا من الكرسى البابوى الذى شبه جهوده فى الجزائر بجهود القديسين المسيحيين الأوائل .

وعندما لوحظ صمود الجزائريين فى وجه هذه المحاولة انشئت جمعية «الأخوات البيض » أملا فى أن تتمكن «الأخوات» عن طريق نفاذهن الى البيوت واتصالهن بالنساء الجزائريات من استمالتهن للديانة المسيحية عبر ما تقدمن لهن من مساعدات عينية وخدمات صحية الخ .

● محاولة تقســيم الجزائريين عن طريق تحــريك النعــرات العرقية بين « عــرب » و «بربر» على أساس أن ذلك هو الطريق لتفتيت «الصخرة العربية البربرية » التى يلحمها الدين .

وفى هذا الاطار صدرت محاولات تنظيرية تتداخل مع تشويه التاريخ ، تتمثل فى نسبة البربر إلى أوروبا ، والعرب إلى الجزيرة العربية . وقد كتب أحدهم - منذ القرن الماضى - يقول ما معناه : أن عقلية البربرى لا تشبه عقلية محمد أو موسى ، ولكنها أكثر شبها بعقلية مونتيسكيو وكوندوريسى .

● وبناء على ذلك كله ظهرت محاولات معينة يجسمها مشروع الداعين الى ربط بعض المناطق «البربرية» بالمسيحية ، وقد عبر بعض هؤلاء عن هذا المشروع بقوله : يجب أن نجعل بلاد البربر لبنان أفريقيا ومن سكانها موارنة المستقبل بل لقد فكر بعضهم آنذاك - أى منذ القرن الماضى - فى توطين عدد من موارنة لبنان فى بلاد القبائل .

ومن الواضح أن كل تلك المحاولات تؤدى - ان هى نجحت كليا أو حتى جزئيا - إلى تجفيف منابع الثقافة العربية - الإسلامية وتحنيطها وينتج عن ذلك ، خصوصا مع انتشار التعليم الفرنسى تكوين نخبة مثقفة جزائرية تحتقر ماضيها ، وتجهل تاريخها ، كما تجهل أبرز أعلام ومنجزات الحضارة العربية - الإسلامية . وهو ما يسهل نجاح المشروع الاستعمارى . خاصة وأن المدرسة الفرنسية حاولت النفاذ الى الأرياف الجزائرية .

على ذكر ذلك ، يحضرنى مشهد أول درس تلقيته فى السنة الأولى من المدرسة الابتدائية الفرنسية ، كان المعلم جزائريا يرتدى اللباس التقليدى ، وقد علمت فيما بعد منه أن أول مزاولته لتدريس الفرنسية كان فى عام ١٨٩٨ ، ببنى تليلان ، وهى منطقة ريفية بعيدة عن العمران المدنى ، تقع فى جبال الشمال القسطنطينى .

إن كل تلك المحاولات التى أمتدت تقريبا منذ الثلث الأخير من القرن الماضى ، قد تم تتويجها بالاحتفالات الضخمة التى أقيمت فى ١٩٣٠ بمناسبة مرور قرن على الاحتلال. وقد اقترنت تلك الاحتفالات بتمجيد شخصيات معينة من التاريخ الفرنسى ، مثل چان دارك ، ومثل القديس لويس . وقد تصور الفرنسيون أن مشروعهم قد كلل بالنجاح ، وأن الجزائر أصبحت فرنسية إلى الأبد .

هنا أجد أنه قد آن الأوان للحديث عن **المشروع الوطني المضاد** تصدق على هذا المشروع نفس الملاحظة التى سقتها بشأن المشروع الاستعمارى . فرد الفعل الوطنى

لم يتخذ منذ بداياته طابع مشروع متكامل ، بل لقد تحدد تدريجيا عن طريق مواقف براغماتية تطورت تدريجيا فى ظل المواجهة حتى أصبحت مشروعا مضادا بالفعل .

– كان إغلاق معاهد التعليم العربى فى الجزائر قد دفع عددا من الجزائريين الى التوجه خارج الجزائر : جامع الزيتونة فى تونس ، جامع القرويين فى المغرب ، الجامع الأزهر فى مصر . ذلك أن التعليم الذى كانت توفره بعض الزوايا فى الجزائر كان تعليما متخلفا من جهة ، ومقصورا على مستويات محدودة من جهة أخرى .

يضاف لذلك أن تعليم التاريخ فيها كان عبارة عن سرد لكرامات الأولياء ، يكرس هيمنة شيوخ الزوايا على المقدرات العقلية للخريجين المدعوين لتأطير النشاط الطرقى المتحالف مع الاستعمار .

وقد كانت نسبة الذين ترددوا على جامع الزيتونة فى تونس أعلى من غيرها وتأتى نسبة المترددين على المغرب فى المرتبة الثانية .

وإذا كانت الدراسة فى الزيتونة والقرويين والأزهر دراسة تقليدية سكولاستيكية فإنها كانت أفع مستوى من تعليم الزوايا وأكثر تنوعا . يضاف ان دراسة الأزهر والزيتونة كانت متأثرة – بدرجات متفاوتة – برياح الاصلاح والتجديد التى كانت تحمل أفكار الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى . وقد تأثر بعض الطلبة الجزائريين بتلك الأفكار .

وقد كان الشيخ محمد النخلى والشيخ الطاهر بن عاشور من أبرز ممثلى حركة الاصلاح الدينى فى تونس . كما كان البشير صفر من أبرز دعاة العناية بالتاريخ فى تونس .

وقد تأثر بكل أولئك طلبة أصبحوا فيما بعد أسماء لامعة مثل عبد الحميد بن باديس ومبارك الميلى . أما محمد البشير الإبراهيمى فقد كان قد نهل مباشرة من مدارس المشرق ، حيث أقام هناك مدة طويلة قبل إنتهاء الحرب العالمية الأولى ، ومثله الطيب القصيبى الذى كان يقيم فى الحجاز قبل تلك الحرب ، حيث تأثر بالأفكار الواردة فى كتاب محمد بن عبد الوهاب .

**رد الفعل في مجال التاريخ**

اتخذ رد الفعل هذا أشكالا مختلفة ، ظهرت عبر جهـود فردية قام بها هذا المثقف أو ذاك من مثقفى العربية ، عندما تولوا التدريس فى القرية أو المدينة التى عادوا اليها بعد تخرجهم .

ولكى نتصور مدى تأثير هؤلاء فى محيطهم الأمى ، لابد من أن نتخيل (جيل اليوم قد لا يتصور ذلك بسهولة ) التعظيم الذى يوليه أبناء القرية أو القبيلة لابنهم الذى أصبح «عالما» يقرأ الكتب ، ويشرح معضلات الدين ، ويلقنهم من المواعظ ما يمكنهم من الحصول على مفاتيح الجنة واستحقاق الثواب فى الآخرة .

ان المسألة لا تتعلق هنا بتحديد نوعية وقيمة الثقافة التى يمتلكها «عالم» القرية أو القبيلة ، فيكفى أنه اغترب طلبا للعلم ، وهاجر فى سبيل التفقه فى الدين ، وعاد بعد طول غياب ، يحمل فى عقله علما « عجيبا » ، ويحمل فى ركابه مجموعة كتب أشد عجبا لأن فهمها يستعصى ليس فقط على الاميين ، ولكن أيضا على المتعلمين البسطاء من حفظة القرآن والذين «يفكون الحرف » . فهو محاط ، فى نظر أبناء قبيلته أو قريته بهالة إعجاب وتقدير ، تجعل لما يقوله وقعا يتجاوز بكثير حجم الكلمات التى يتفوه بها .

بل إن عدم فهم البسطاء من الناس لما يقوله ، عندما يحدثهم بعربية فصحى يدفعه الى إستعمالها حرصه على الظهور فى مظهر المتفوق ، يجعل الكلمات غير المفهومة أشد وقعا وأكثر تأثيرا مما لو كانت مفهومة لديهم .

فكيف إذا كان «العالم» عائدا من « تونس » أو « فاس » أو « القاهرة » .

لكن أبرز مجهود ظهر فى العشرينيات كرد فعل على المشروع الاستعمارى فى مجال التاريخ ، هو الكتاب الذى ألفه الشيخ مبارك الميلى والذى تم طبعه ونشره عام ١٩٢٨ ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب يتميز بعدد من الأمور وخاصة منها :

**الأول** : أنه أهداه الى الشعب الجزائرى وشبابه ، مراهنا بذلك على الشباب الجزائرى واستجابته لنداء التاريخ . وينص فى هذا الاهـداء على أن عصرا عمت فيه الديمقـراطية أو كـادت ، يحتـم التوجه بالاهداء للشـعب وليس للملوك والأمـراء والعظماء .

الثاني : أنه في مجموعة «المقدمات» التى مهد لها للجزء الأول من « تاريخ الجزائر في القديم والحديث » يلح على التفرقة بين التاريخ والأسطورة . فهو يأخذ على التاريخ الذى تعلمه الزوايا الطرقية أنه عبارة عن سرد لكرامات هذا الولى أو ذاك وليس استعراضا لوقائع حقيقية تساعد الجزائرى على الاهتداء الى سواء السبيل فى بحثه الحائر عن الذات والوطن .

الثالث : أنه فى ذلك الجزء الأول الذى خصصه لتاريخ الجزائر قبل الاسلام ، يتناول مجموع تلك الحقيقة من منظور « وطنى » فهو يعتبر « يوغرطا » ( لأنه قاوم الرومان) بطلا وطنيا ، بل هو يعتبر «الكاهنة » التى قاومت المسلمين «بطلة» قومية ينبغى أن تكون قدوة للمرأة الجزائرية الحديثة .

الرابع : أنه لا يفرق بين «العرب» و«البربر» ويعتبر الجميع مشاركين فى صنع التاريخ الوطنى ، من جهة ، وهو من جهة أخرى لا يسعى الى التنقيص من قيمة البربر أو تجاهل خصوصيتهم ، فهو يتحدث في الجزء الثانى من كتابه ، عن « عبد الحميد بن باديس » بوصفه تتاجا مشتركا لأمتين عظيمتين : العربية والبربرية .

خامسا : أنه ، إذ يسوق وقائع المقاومة ضد الرومان وضد العرب «المسلمين» يستخلص من ذلك خصوصية الشعب وشخصيته التى لن تذوب فى غيرها من الأمم ، ولن تندمج فيها «حتى يلج الجمل فى سم الخياط » حسب التعبير الذى استعمله فى هذا المجال .

ولقد كان لصدور هذا الكتاب صدى واسع فى الجزائر وفى خارج الجزائر .

فقد بادر الأمير شكيب أرسلان، فور اطلاعه عليه ، بكتابة رسالة إلى الشيخ الطيب العقبى يقول فيها ما معناه : «أما الجزائر فما كنت أظن أن فيها من يغرى هذا الغربى.. فباديس والميلى والعقبى والزاهرى هم حملة عرش الأدب الجزائرى الأربعة » .

والزاهرى ، لمن لم يكن قد سمع به ، كان شاعرا وأديبا ، واسمه الكامل محمد السعيد الزاهرى ، وكان قد انضم الى جمعية العلماء فى وقت من الأوقات . لكن الفترة التى يتحدث عنها شكيب أرسلان كانت قبل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التى كان من أبرز رجالها المؤسسين : عبد الحميد بن باديس ، محمد البشير الإبراهيمى ، مبارك الميلى ، الطيب العقبى وغيرهم .

وكان ابن باديس موجودا بمصيف «حصن الماء» من ضواحى العاصمة الجزائرية الشرقية ، عندما اطلع على الجزء الأول من التاريخ المذكور ، فبادر بكتابة رسالة الى مبارك الميلى جاء فيها ما معناه : لقد اطلعت على كتابك .. وإذا كان من أحيا نفسا واحدة فكأنما أحيا الناس جميعا ، فكيف بمن أحيا أمة .. وكان خليقا بك أن تسميه «حياة الجزائر» . ثم يقول ليس جزاؤك أن تشكرك الأفراد ، ولكن أن تشكرك الأجيال .

وقد انتشرت هذا الكتاب آنذاك انتشارا واسعا بمعايير ذلك الزمان ، وأقبل على شرائه حتى الأميون عسى أن يتاح لهم قارئ يحكي لهم وقائعه .

وعندما تأسست مدارس التعليم العربى الحر ، أصبح مرجعا يعتمد عليه المعلمون فى استخراج دروس فى التاريخ يلقونها للتلاميذ .

رد الفعل في مجال اللغة :

كان خريجو الزيتونة والقرويين والأزهر يجدون أبواب التوظيف الرسمى موصدة فى وجوههم ، لأن تعليم اللغة العربية كان ممنوعا إلا فى حدود ضيقة جدا ، يتحكم فيها سلطان الادارة الفرنسية .

ولذلك تفرغوا للتدريس الحر ، سواء فى المسجد أو فى مدارس يقيمها الشعب من حر ماله ، عبر تبرعات يجمعها رواد الدفاع عن العربية ، والحريصون على صيانتها .

وهكذا انتصب للتدريس فى قسنطينه عاصمة الشمال الجزائرى الشيخ عبد الحميد بن باديس ، وفى تلمسان عاصمة الغرب الجزائرى الشيخ محمد البشير الإبراهيمى ، وفى العاصمة الشيخ الطيب العقبى والشيخ الشاعر محمد العبد آل خليفة ، وفى الاغواط بالجنوب الشيخ مبارك الميلى ، وهناك ألف « تاريخ الجزائر فى القديم والحديث» (الجزء الأول ظهر عام ١٩٢٨ ، وظهر الجزء الثانى عام ١٩٣٢) والشيخ العربى التبيسى فى سيش قرب وهران بالغرب الجزائرى .. الخ .

وكان عدد من هؤلاء الشيوخ يعرفون بعضهم بعضا . وقد فكروا فى إنشاء تنظيم يجمع جهودهم ويوحد صفوفهم منذ منتصف العشرينيات ، وظلت الفكرة تتردد حتى نضجت على نار الإحتفالات الضخمة بإحتلال الجزائر فى صيف ١٩٣٠ ، ولذلك بادروا إثر ذلك مباشرة إلى إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

آنذاك توحدت جهود الجميع ، وأصبح تكوين المدارس الحرة وبثها عبر أنحاء الوطن إحدى المهام الرئيسية لهذه الحركة ، وهي مدارس كانت تقام بتبرعات شعبية ، ساهمت فيها شرائح البورجوازية الصغيرة وأوساط العمال الأدنى دخلا .

وكانت مهمة هذه المدارس هي تعليم اللغة العربية للأطفال الجزائريين ، بطرائق تختلف كل الاختلاف عن مناهج التدريس المسجدي الذي كان يقلد طرائق الزيتونة والقرويين والأزهر .

فهي مناهج تحاول أن تكون عصرية ، سواء من خلال الحرص على تقليد المظاهر الخارجية للمدرسة الفرنسية (طاولات وسبورة بدل الحصير والسجاد ) أو من خلال طرق تعليم النحو والصرف ومبادئ الفقه ودروس التاريخ الخ .. فقد حلت في أقسام تلك المدارس دروس عصرية محل متون ابن عاشي وقطر الندى وبل الصدى لابن هشام الانصاري وألفية ابن مالك والعاصمية وشروح المكودي أو ابن عقيل أو التاودي الخ . وكان ولي أمر التلميذ يدفع معلوما معينا للمدرسة مقابل تعلم ابنه عندما يكون ميسور الحال ، أما الفقراء فقد كانوا يعفون عمليا من الدفع ، وإن كانت توجه لهم «الفاتورة» شكلا حتى لا يشعروا بأنهم أقل درجة من الآخرين .

وكانت دروس التاريخ الوطني من أحب الدروس لأنفس التلاميذ ، لأنها تعلمهم الاعتزاز بالانتماء الى حضارة غير تلك التي تمثلها غطرسة المعمرين الأوروبيين .

وقد استعملت جمعية العلماء وسيلة أخرى لغرس نخوة الاعتزاز بالتاريخ الوطني تتمثل في إقامة «نوادي» تمول نفسها تمويلا ذاتيا من خلال نشاطها كـ « مقاهي » فقد كانت تنظم فيها محاضرات أسبوعية تحيط الشباب علما ببعض وقائع التاريخ العربي – الاسلامي أو وقائع التاريخ الجزائري الأحدث مثل مقاومة الأمير عبد القادر .

ولم يكن مهما أن يكون تلقين التاريخ للشباب والمراهقين خاضعا لمنهج علمي ، فالمهم هو تغذية العزة الوطنية عبر تعزيز الانتماء الى تاريخ مغاير للتاريخ الفرنسي .

ومن هنا فانهزام الروم رغم أنه يرجع الى بدايات العهد الاسلامي ، يحمل للمستمعين شحنة نفسية وعاطفة قوية تغذي مخيلتهم عندما يتصورون الفرنسيين مكان الروم والجزائريين مكان المنتصرين عليهم . إن كل مشهد تاريخي وكل رواية لهذه

مة أو تلك من وقائع الغزوات سواء فى عهد النبى – صلى الله عليه وسلم – أو فى خلفائه الراشدين أو من بعد ذلك ، يتحول إلى «حاضر » يعيشه الشاب الجزائرى، نفسه فيه ، ويتعرف فيه على انجاز «يحلم بتحقيقه فى المستقبل » .

وكان تلاميذ المدارس الحرة يلقنون نشيدا وضعه ابن باديس أصبح بمثابة نشيد وطنى تتردد أنغامه فى أنحاء الجزائر وإن كان غير معترف به فرنسيا ، لكنه كان بمثابة رد على «تلقين الجزائريين نشيد « لامرسييز» فى المدرسة الفرنسية .

وقد حوصل ابن باديس فى هذا النشيد أهم اتجاهاته السياسية إذ يقول فى مطلعه :

شعب الجزائر مسلم .. والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله .. أو قال مات فقد كذب
أو رام ادماجا له .. فقد رام المحال من الطلب

ويقول أيضا مستهدفا عزائم الأطفال والشباب :

يا نشء أنت رجاؤنا .. وبك الصباح قد اقترب
فخذ للحياة سلاحها .. وخض الخطوب ولا تهب

إلى أن يصرخ فى خاتمته :

هذا لكم عهدى به .. حتى أوسد فى الترب
فإذا هلكت نصيحتى .. تحيا الجزائر والعرب

وقد كانت مدارس جمعية العلماء تحرص على تحبيب اللغة العربية للأطفال الجزائريين عبر تقليد المدارس الفرنسية فى أنشطتها ، وكان ابن باديس – مثل مجموع أعضاء الجمعية – لا يعارض فى تعلم اللغات الأجنبية ، شرط تعلم اللغة العربية .

وتجدر الاشارة فى هذا المجال الى أن بعض متعلمى الفرنسية من الجزائريين كانوا فى ١٩٢٩ يدعون الى إدخال البنت الجزائرية الى المدرسة الفرنسية ، وطلبوا من ابن باديس أن يلقى محاضرة فى هذا الموضوع بنادى الترقى ، فى عاصمة الجزائر .

كان ابن باديس موجودا آنذاك فى مصيفه المفضل «حصن الماء» الذى يبعد حوالى عشرين كيلومترا عن قلب العاصمة . فقد كان الزمن صيفا ، واستجاب ابن باديس الى

طلب أصدقائه الفرنسيين وألقى محاضرة في شهر أغسطس ١٩٢٩ ، حوصلها بعد ذلك كتابه ، ونشرها في نوفمبر ١٩٢٩ بمجلته الشهرية « الشهاب» ، وبدأ محاضرته قائلا ما معناه : عندما كنت في الطريق من «حصن المياه» أفكر في الموضوع المقترح عليَّ ، إذ بدا لي رجل جزائري بفنوره (الفنور هو الغطاء التقليدي الذي كان يوضع على رؤوس الرجال ) ظهر إليَّ معنويا وليس حسيا ، وقال لي : تفكرون في تعليم المرأة وتنسونني أنا الرجل .

ثم راح يحلل مخاطر تعليم البنت للغة الأجنبية في غياب اللغة الوطنية لأنها عندما تصير أما توجه الابن إلى حب فرنسا بدل التعلق بالجزائر . وقال أيضا في هذه الحالة نفضل أمهات أميات مثل أمهاتنا عليهن الرحمة ، لأنهن يربين الطفل على حب الوطن .

وإذا قيل لنا إن المرأة المتعلمة التي تقود الطائرة أفضل من الأمية ، نقول إن الأم التي تنتج لنا رجلا يطير لفائدة الجزائر خير من التي تطير بمفردها .

ومعنى ذلك أن ابن باديس كان يدرك منذ العشرينيات أهمية تعلم اللغة العربية وكان يرفض الدخول في المنطق الاستعماري المتصل بالتعليم وتعليم البنات خاصة .

رد الفعل في مجال الدين

كانت المساجد التابعة لملاك الأوقاف تخضع آنذاك للادارة الفرنسية التي تتولى هي دون غيرها تعيين أئمتها ، ومن هنا اضطرت حركة العلماء الى أن تتولى بناء مساجد تمولها الفئات الشعبية عبر جمعيات دينية محلية . وما لبثت تلك الجمعيات المحلية أن صارت عبارة عن فروع لجمعية العلماء ، توغلت في الأرياف ولم تقتصر على المدن .

وتجدر الاشارة هنا إلى أن الدروس التي كانت تلقى في المساجد الشعبية الحرة كانت في معظمها متأثرة بالأفكار التي حملها خريجو الزيتونة والأزهر ، وغيرهم من الذين احتكوا في المشرق بالتيارات الاصلاحية الدينية والسياسية ، التي أشرنا إليها آنفا .

ولم يكن المسجد هو الوسيلة الوحيدة التي واجه بها العلماء محاولات التحريف وتسخير الدين لفائدة الاستعمار : فقد كانت هناك عدة صحف ، بعضها كان يصدر

قبل تأسيس جمعية العلماء وصدر بعضها الآخر بعد تأسيسها : فقد كان الطيب العقبى قد أسس جريدة «الاصلاح» فى بسكرة جنوب شرق الجزائر حوالى ١٩٢٤ ، وكانت هناك صحيفة «صدى الصحراء » وغيرها من الصحف . وبعض صحف ذلك الوقت أسسها علماء ينتمون إلى المذهب الأباضى ، وكان لها نفس التوجه السياسى . وكان ابن باديس قد أسس فى عام ١٩٢٤ جريدة «المنتقد» ( وكان بذلك يرد على شعار اعتقد ولا تنتقد ) وعندما منعت ، أسس جريدة «الشهاب» التى تحولت فيما بعد إلى صحيفة أسبوعية .

وقد أصدرت جمعية العلماء جرائد تنطق باسمها ، مثل «السنة» و« الصراط» ثم «البصائر» .

وقد نشرت هذه الأخيرة سلسلة مقالات بعنوان «الشرك ومظاهره» كتبها مبارك الميلى فى منتصف الثلاثينيات . ثم نقحها وبوبها ونشرها فى كتاب وضع عنوانا له «رسالة الشرك ومظاهره» . وكانت عبارة عن محاولة لتنظير الاصلاح الدينى وتزويد دعائمه باداة يستعملونها فى الرد على الطرقيين المتحالفين مع الاستعمار .

وتظهر أهمية تلك المحاولة فى أنها لم تقتصر على الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تندد بالبدع والخرافات وتقديس الأحجار والأولياء والقبور .... الخ ، بل أن مؤلفها طبقها على الواقع الجزائرى ، واستخلص من هذا الواقع عينات اجتماعية حللها تحليلا دينيا وسياسيا فى الوقت نفسه .

وهو عندما يتعرض لتحالف بعض مشائخ الزوايا مع المعمرين الأوروبيين يقول ما معناه إن تفسير ذلك يرجع إلى أن مشائخ الزوايا يشبهون المعمرين فى «شرب عرق الخدامين» (أى استغلال عرق العمال) .

وهناك بعد لابد من التنصيص عليه ، لأنه يكتسى طابعا سياسيا بالغ الأهمية ، كثيرا ما غفل عنه الباحثون الذين تعرضوا لحركة الاصلاح الدينى ، فعلى الرغم من طابعها الدينى فقد ترتبت عنها نتائج سياسية بالغة الأهمية ، بقطع النظر عن كونها مقصودة أو لم تكن مقصودة .

ذلك أن سيطرة الزوايا ومشائخها على مختلف الشرائح الشعبية كانت بعد الحرب العالمية الأولى قوية الى درجة أنها كانت تتحكم فى توجيه العقليات والسلوك ، وكان شيخ الطريقة رجلا مقدسا لا يرقى اليه شك : فهو إن رآه الناس شرب خمرا مثلا ، فإن الاعتقاد الشعبى الشائع هو أن الخمر تتحول فى فم «الشيخ» إلى عسل !

ومعنى هذا أن أى نشاط سياسى ضد الاستعمار كان محكوما عليه بالفشل فى مواجهة هذا النفوذ الديني المطلق . هنا تظهر أهمية الاصلاح الدينى على يد علماء الجزائر، فقد كان لابد من مقارعة السيطرة الطرقية التي تكتسى لبوس الدين، بأسلوب ودعوة دينية مضادة ، تكشف ألاعيبهم، وتقضى على ما يتمتعون به من تقديس .

وإذا كان مشائخ الزوايا قد تحطم نفوذهم على يد الاصلاح الدينى ، فذلك يعنى أن رجل الشارع الذى كان يخضع لسيطرة الزوايا قد تحرر عقليا وأصبح قادرا على نقد ممارسات رجال الزوايا ، فأحرى أن يتحرر عقله من السيطرة المعنوية للاستعمار .

وتجدر الاشارة هنا إلى أن فترة ما بين الحربين العالمية الأولى والثانية قد شهدت بفعل تأثير المدرسة الفرنسية تكوين نخبة جزائرية مثقفة بالفرنسية . وكان هناك عدد كبير من رجال هذه النخبة يؤمنون بأن «الجزائر فرنسية» . وقد أصدر بعضهم صحفا تطالب باحترام حقوقهم «كمواطنين فرنسيين » لهم نفس الحقوق التى يتمتع بها الفرنسيون الاصليون ، وكان بعض تلك الصحف يدعو إلى التجنيس بالجنسية الفرنسية .

وقد قامت علاقات ، على مستويات فردية بين المثقفين الفرنسيين وبين جماعة العلماء لأن توجه الجميع كان توجها عصريا .

فقد كان ابن باديس يدعو منذ بداية الثلاثينيات الى توجيه الطلبة القادرين إلى كليات فرنسا «التجارية والعلمية » حسب تعبيره ، بدل الاقتصار على توجيههم إلى الآداب والحقوق . لكن عندما تطورت مسألة التجنيس إلى درجة أصبحت تهدد الكيان الوطنى للجزائر ، أصدرت جمعية العلماء فتوى تعتبر أن «المتجنس» مرتد لا يجوز دفنه فى مقابر المسلمين ، نظرا إلى أن التجنيس يخضعه للقانون الفرنسى حتى فى الأحوال الشخصية .

إن المجهودات التى بذلها رجال الاصلاح الدينى فى الميادين الثلاثة . لا تمثل فقط مشروعا وطنيا مضادا ولكنها تبرهن على سعى هذه الحركة الى تغطية كل شرائح الأعمار الجزائرية ، فالكبار الذين يؤمون المساجد ، يلقون فيها من يبصرهم أمور الدين ويعلمهم بالمناسبة مبادئ التاريخ العربى والاسلامى ، والشباب الذى لا يتردد على المساجد يتكفل به المحاضرون فى النوادى . والأطفال يتكونون فى المدارس .

إذن فلم يكن الجزائريون والفرنسيون في ذلك الوقت يتحدثون لغة واحدة ولم يكونوا ينتمون إلي ثقافة مشتركة .

وإذا أردنا التدقيق فيما يتصل بهذه النقطة ، فأعتقد أن أقرب تعبير لتصوير واقع الجزائر آنذاك يتمثل فى تجنب النفى القاطع والجزم القاطع فى نفس الوقت - فالمؤكد أن الجزائريين لم يكونوا يتحدثون لغة واحدة والفرنسيين . والمؤكد أيضا أن الطرفين إذا كانا يقفان على طرفى نقيض فيما يتصل بقضايا اللغة والدين وممارسة الحقوق السياسية فإنهما كانا يحتكمان إلى عدد من المفاهيم المشتركة مثل المناداة بالحرية والمساواة والديمقراطية ، فالفرنسيون كانوا شديدى التمسك - نظريا على الأقل - بمبادئ الثورة الفرنسية وإعلان حقوق الإنسان ، والجزائريون كانوا يلجأون إلى هذه المبادئ فيطالبون الإدارة الفرنسية باحترامها فى الجزائر احترامهم لها فى باريس . وإذا كان الجزائريون قد قاطعوا المدرسة الفرنسية فى بدايات العهد بها ، فانهم مالبثوا أن تبينوا المكاسب التى يمكن أن يحققوها من وراء إكتساب الفرنسية والإنفتاح على العصر . والتسليم بأن تغيير أوضاعهم يمر حتما بتوظيف المبادئ التى ترفدها الثقافة الفرنسية من أجل محاربة الاستعمار الفرنسى الذى يفترض فيه أن يسهر على خدمة نفس الثقافة .

ولهذا لم يكن علماء الدين أنفسهم فى الجزائر آنذاك يستنكفون من إرسال أبنائهم الى المدارس الفرنسية فى نفس الوقت الذى يحرصون فيه على تلقينهم العربية فى مدارس حرة ، ولعله من المفيد التذكير بالمجهود الذى كان يفرضه هذا الحرص على الجمع بين اللغتين على أطفال الجيل الذى أنتمى إليه .

فبما أن المدرسة الفرنسية لها ساعات معينة لا تتغير مواقيت التدريس فيها ، (وهى من الثامنة حتى الحادية عشرة صباحا ، ومن الثانية حتى الخامسة بعد الظهر ) فقد كان على المدرسة الحرة أن تتكيف مع هذا التوقيت حتى تستوعب من يترددون على المدرسة الفرنسية ، ومن هنا كانت ساعات التدريس بها صباحا من السادسة حتى السابعة والنصف ومن السادسة مساء إلى السابعة والنصف . ويستطيع المرء أن يتصور المشقة التى كان يتجشمها التلميذ فى زمن الشتاء . فالسادسة تعنى ظلام الفجر ، والسابعة مساء تعنى ظلام ما بعد صلاة العشاء .

ولقد تتفق معى، بعد هذا على أن المسألة الثقافية فى جزائر العهد الاستعمارى بوصفها تبدأ بالسـياسة وبالسـياسى تنتهى، لم تكن سـهلة التناول وأنها معقدة أشد التعقيد .

فالاستعمار الذى كان عنصريا فى توجهه ، أراد من خلال فرض الثقافة الفرنسية تكريس وجوده وتأييد سلطانه . لكن رغم ذلك - ولأن الجزائريين تفطنوا إلى كعب أخيل فيه - لم يستطع أن يحول دون أى تصبح المدرسة الفرنسية مجالا يتدرب فيه الجزائريون على مبادئ الحياة العصرية والمثل العليا للثورة الفرنسية من أجل توظيفها ضد الاستعمار .

وقد كان من الممكن أن يقوم ، نتيجة لذلك كله ، نوع من الحلف بين الجزائريين المتفتحين على العصر ، والفرنسيين المتمسكين بمبادئ ثورة ١٧٨٩ والذين استطاعوا التخلص من الطابع العنصرى للثقافة الاستعمارية . بل لقد قام فعلا مثل هذا الحلف عبر عينات لا تتوافر لدىَّ الآن الوثائق التى تثبتها .

لكن تطرف المعمرين الأوروبيين ورفضهم لأى اعتراف بحقوق «الأهالى» كما كانوا يسمونهم ، أدى الى تطرف مقابل تمثل فى سعى الوطنيين الجزائريين الى تمجيد الماضى تمجيدا مطلقا ، فى نوع من رد الفعل على المزاعم الاستعمارية . وكما كان المعمرون يرفضون مواجهة حاضرهم بنظرة نقدية ثاقبة خوف أن يؤدى ذلك إلى إضعاف سلطانهم ، كان الوطنيون - بالمعنى الواسع للوطنية ، بحيث شمل السياسيين ورجال الدين الإصلاحيين - يرفضون أى نقد للماضى العربى - الإسلامى لأنهم

يعتبرون ذلك قدحا ونيلا من السلاح الاساسى والملاذ الرئيسى الذى يلجأون إليه لتعبئة همة الجماهير وتوحيد صفوفها فى مواجهة الاستعمار .

على أن تنــاول كل التســاؤلات التى يطرحها هذا المسعى يتطلب تفـريعات عديدة لا يتسع لها المقام هنا .

وها أنا وقد وصلت إلى هذه النقطة وجدت أن الأمر يتطلب الاسهاب فى شرح عدد من المعارك الفكرية بين الشعب الجزائرى والاستعمار ، وخاصة ما يتصل منها بتفسير التاريخ - من طرف الاستعمار أو المثقفين الجزائريين - لترجيح كفة هذا أو ذاك ، وكذلك ما يتصل منها بدور المرأة ومكانتها أو كيفية معالجة أو تجاهل بقايا ومخلفات التنظيم القبلى ...... الخ .

لكن متابعة هذا النقاش فتحت أمامى مجالات أخرى لا أستطيع تغطيتها إلا من خلال فصول قد تصلح لأن يتشكل منها كتاب .

وهذا ما سوف أحاوله إن شاء الله ، شاكرا لك أنك - من خلال دفعى إلى مناقشتك - قد أجبرتنى على تناول موضوع طالما ما فكرت فيه دون أن أتمكن من إنجازه وعسـى أن يدفعك هذا كله أنت الآخر إلى إثارة جوانب أخرى من الموضـوع ، قد تكون خفيت عنى .

**مع أخلص تحياتى**
**محمد الميلى**